صفحات ونفحات

من باطن النبوة المحمدية

بقلم

الدكتور محمد مصطفى حلمى

أستاذ الفلسفة الاسلامية والتصوف بكلية الآداب ـ جامعة القاهرة

تبينت مما قدمت اليك فى هذه الصفحات والنفحات من المعانى الروحية فى الحياة المحمدية والاحاديث النبوية ، كيف كانت هذه الاحاديث وتلك الحياة ، منهلا صافيا ، ومواردا شافيا ، لما يقوم عليه ويدعو اليه التصوف الاسلامى من كمال العلم وكمال العمل ، وما يوصل الى هذين الكمالين من رياضات ومجاهدات ، وأذواق ومواجيد ومشاهدات . وهذا يعنى أن النبوة المحمدية بما تهيأ لصاحبها عليه الصلاة والسلام ، قبل نزول الوحى وبعده ، من نقاء السيرة ، وصفاء السريرة ، وجلاء البصيرة ، وما امتلأت به ودلت عليه أحواله وأقواله وأفعاله من تحقق بالمثل العليا ، ودعوة الى تحقيق هذه المثل العليا ، آنما يجب أن يقف عنده الباحث الذى يريد أن يحقق ويدقق فى رد التصوف الاسلامى الى مصدره الحقيقى . وهو يعنى ـ بعبارة أوضح وأصرح ـ أن محمدا عليه الصلاة والسلام سواء فى تحنثه أو فى نبوته ، هو عند الصوفية الانسان الكامل الاول الذى اتخذوا منه ، ولايزالون يتخذون منه ، القدوة الحسنة ، والاسوة الصالحة .

على أن ما قدمت اليك الى الآن من صفحات ونفحات مستمدة من الحياة المحمدية والاحاديث النبوية ، وفياضة بالأنوار الروحانية ، والاسرار النورانية ، لا يكاد يتجاوز ظاهر النبوة المحمدية الى ما وراء هذا الظاهر من باطن ينطوى على أعمق الحقائق وأدق الدقائق ، مما لا يتاح فهمه الا لأصحاب القلوب التى صفت ورقت ، وأرباب الاذواق التى صقلت ودقت . والصوفية ـ وقد تميزوا فى علمهم وفى عملهم بأنهم أهل بواطن على حين نظروا الى غيرهم على أنهم أهل ظواهر ورسوم سواء فى العلم أو فى العبادة ـ لم يقفوا مع النبوة المحمدية عند ظاهرها فحسب ، ولم يكتفوا بالاقتداء والاهتداء بمحمد النبى عليه الصلاة والسلام ، الذى بعثه الله بشيرا ونذيرا فحسب ، وانما هم قد نظروا ورجعوا الى ما وراء ذلك ، واستضاءوا واستمدوا مما قبل ذلك : فالنبوة المحمدية عندهم وجهان : وجه محدث ، ووجه قديم .. فأما وجهها المحدث فهو صورتها الظاهرة التى ظهر فيها محمد عليه الصلاة والسلام عربيا متحنثا ، ثم نبيا مرسلا ، ثم خاتما للأنبياء . وأما وجهها القديم فهو حقيقتها الباطنة السابقة فى

وجودها على صورة محمد النبى الذى ختمت به النبوة ، وعلى صور غيره من الانبياء السابقين فى زمانهم على زمان محمد النبى . وهذه الصورة الباطنة للنبوة المحمدية هى ما يطلق عليه الصوفية أسماء عدة كالنور المحمدى ، والحقيقة المحمدية ، وحقيقة الحقائق ، والحقيقة الجامعة ، والقطب ، وقطب الاقطاب ، وغير ذلك من الاسماء التى تختلف باختلاف المؤلفين الصوفيين ، ولكنها تتفق فيما تدل عليه من اثبات القدم للحقيقة المحمدية ، وأنها سابقة فى وجودها على الأكوان ، وعلى كل زمان ومكان ، وعلى كل أفراد الانسان ، وانها أول نور من أنوار الله ، منه استمدت أنوار النبوة الظاهرة المتحققة فى رسول الله ، وعنه صدرت أنوار النبوات الاخرى التى تحقق بها السابقون من الانبياء على رسول الله : فلقد كان محمد عليه الصلاة والسلام حقيقة جامعة للحقائق قبل أن يكون حقيقة من الحقائق ، وكان منبعا مفيضا للمعارف واللطائف قبل أن يكون متلقيا مستفيدا للمعارف واللطائف ، وكان مجمعا كليا لكل الرسالات والنبوات قبل أن يكون رسولا من الرسل ونبيا من الأنبياء .

واذا كان ذلك كذلك ، فقد تبين آذن أن محمدا صلى الله عليه وسلم ، سواء فى نبوته الظاهرة التى أفردت للحديث عنها المقالات الأربع السابقة أو فى حقيقته الباطنة التى أتحدث عنها فى هذا المقال ، لم يكن أنسانا كاملا كغيره من أفراد الانسان الكامل الذين يتمثلون فى هذا النبى أو ذاك فحسب ، ولا هو أكمل انسان أختص بما لم يختص به غيره من الكمل فحسب ، ولكنه كان هذا وذاك ، وكان شيئا آخر أسمى من هذا وذاك ، وكان له خطره وأثره فى التاريخ الدينى بصفة عامة ، وفى تاريخ الحياة الروحية الاسلامية بصفة خاصة ، وفى تاريخ الفلسفة الصوفية الاسلامية بصفة أخص : فنبوته الظاهرة كانت مطلع فجر جديد فى حياة الانسانية ، وسلوكه الذى سلكه أعدادا أو استعدادا لهذه النبوة وفى ابانها كان كله اقامة لصرح الدين القويم على دعائم نفسية وخلقية وروحية واجتماعية ، وتوجيها للافراد والجماعات الى الأخذ بالمبادىء التى أخذ بها نفسه وعقله وقلبه ، والتى لو أخذوا بها نفوسهم وعقولهم وقلوبهم على نحو ما أخذ بها لصلحت حالهم فى معاشهم وحسن مآلهم فى معادهم ، ولظفروا بما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر . وحقيقته الباطنة أو باطن حقيقته التى كانت له فى عالم الغيب ، وقبل أن يخرجه من عالم الغيب الى عالم الشهادة ، قد فتحت الآفاق أمام أرباب الأذواق فأوغلوا بأذواقهم ، وقد انجاب عنها الحجاب وفتح من دونها كل باب ، فاذا هم يرون فى تلك الحقيقة المحمدية الغيبية ما لم يره غيرهم ، واذا هم يعرفون من ذاتها وصفاتها ، ومن معانيها وأحوالها ، ومما انطوت عليه من الحقائق والدقائق ، ما لم تتهيأ معرفته لغيرهم ، واذا هم يحللون ويعللون ، ويفسرون ويؤولون ، ويصنفون وينظمون ، واذا نحن من هذا كله مع

تراث فلسفى روحى اسلامى رائع له جـــدته وطرافته من الناحيتـــين التصوفية والفلسفية ، كما أن له أثره وقيمته من الناحيتين الفـــردية والاجتماعية ، سواء فيما اشتمل عليه من العناصر النفســـية والخلقيـــة والميتافيزيقية ، أو فيما عول عليه أصحابه من اصـــطناع المنهـــج الذوقى الذى ليس أقل خطرا ولا أدنى شأنا من المنهج العقلى ، بل لعله أقدر على معرفة الحقيقة ، وأوصل الى هذه الحقيقة ، والى حقيقة الحقائق ، من هـــذا المنهج العقلى ومن غيره من المناهج التى يصطنعها الفلاســـفة الخلص وغير الفلاسفة الخلص من العلماء التجريبيين .

ولكى يتبين لك هذا كله فى وضوح وجلاء ، يحسن أن أقف معك عند بعض ما خلفه الصوفية من آثار فى الكشف عما انطوى عليه باطن النبوة المحمدية من صفحات ، وما يفيضه على قلوب الذائقين من نفحات :

فهذا هو الحسين بن منصور الحلاج قد وضـــع كتابا يعـــرف باســـم (الطواسين) ، وأفرد من هذا الكتاب فصله الأول الذى جعـــل عنوانه « طاسين السراج » للحديث عن محمد صـــلى الله عليه وســـلم بين ظاهر نبوته وباطن نورانيته فهو قد وصف النور المحمدى ، وبين الصفات التى يتصف بها سراجه الفياض ، والمعانى الروحية التى تنطوى عليها هـــذه الصفات ، وذلك فى قوله : « طاسين سراج من نور الغيب ، بدا وعاد ، وجاوز السراج وساد ، قمر تجلى من بين الأقمار ، برجه فى فلك الاسرار ، سماه الحق (أميا) لجمع همته ، و (حرميـــا) لعظم نعمته ، و (مكيا) لتمكينه عند قربته . شرح صدره ، ورفع قدره ، وأوجب أمره ، فأظهر بدره . طلع بدره من غمامة اليمامة ، وأشرقت شمسه من ناحية تهامة ، وأضاء سراجه من معدن الكرامة . ما أخبر الا عن بصيرة ، ولا أمر بسنته الا عن حق سيرته ... » . ويلاحظ أن الحلاج قد اصطنع هاهنا أسلوب الرمز والتلويح ، فرمز الى نور محمد وحقيقته صـــلى الله عليه وســـلم بالسراج الذى جاء من نور الغيب ، ولكنه رمز واضح الدلالة ، اذ يتبـــين المعنى به فى يسر من خلال الصفات الذاتية والخصائص النفسية والخلقية والميتافيزيقية التى تدل عليها وترمى اليها بقية الالفـــاظ والعبـــارات الاخرى ، والتى ينطق كلها بأنه اما صفة من صـــفات النور المحمـــدى وحقيقته ، أو خاصة من خصائص محمد الرسول ونبوته .

وان الحلاج ليتحدث عن الصلة الروحية الغيبية بين نور النبوة المحمدية وبين أنوار نبوات غيره من الأنبياء ، فيقول : « أنوار النبـــوة من نوره برزت ، وأنوارهم من نوره ظهرت ، وليس فى الأنوار نور أنور وأظهر ، وأقدم من القدم ، سوى نور صاحب الكرم ، همته سبقت الهمم ، ووجوده سبق العدم ، واسمه سبق القلم ، لأنه كان قبل الامم » . كما أنه يتحدث عن المنبع النبوى الفياض بألوان العلوم والمعارف والحكم فيقول : « فوقه

غمامة برقت ، وتحته برقه لمعت وأشرقت ، وأمطرت وأثمرت ، العلوم كلها قطرة من بحره ، الحكم كلها غرفة من نهره ، الازمان كلها ساعة من دهره» ٠

ويتحدث الحلاج بعد هذا كله عن منزلة الحقيقة المحمدية من عالم الحقائق بصفة عامة ، وعن مكانتها من الحقيقة العلمية بصفة خاصة وعن مكان صاحبها وزمانه من النبوة بصفة أخص ، فيقول : « الحق به وبه الحقيقة ، هو الاول فى الوصلة ، وهو الآخر فى النبوة ، والباطن بالحقيقة ، والظاهر بالمعرفة » ٠ فكل أولئك ألفاظ وعبارات ألف الحلاج بينها ، واستعان بها ، بقدر ما أسعفته وواتته فى حاله وذوقه ، على التعبير عن ذلك المعنى الخفى الغيبى من معانى النبوة المحمدية ، وهو معناها الباطن الذى لا يستطيع ادراكه وتذوقه الا من كان له ذوق وصفى القلب وهو أقدر على التسامى عن الظواهر الدنيا الى الحقائق والبواطن العليا ٠

وهذا هو سلطان العاشقين وامام المحبين عمر بن الفارض ، وقد كان شاعرا دقيق الحس رقيق النفس ، استطاع أن يعبر عن أدق المعانى التى تتصل بالحقيقة المحمدية وباطن النبوة فى أبيات من الشعر تحدث فيها بلسان الجمع مع تلك الحقيقة ، واصطنع على عادته أسلوب الرمز والتلويح ، وعبر عن الحقيقة المحمدية بألفاظ مختلفة ، ولكنها تدل كلها على مدلول واحد هو الحقيقة النبوية أو باطن النبوة المحمدية : فالقطب والمعنى والروح والحقيقة كلها ألفاظ دالة على معنى واحد هو باطن النبوة المحمدية الذى يقابل ظاهرها ، وحقيقتها القديمة التى تقابل صورتها الحادثة ٠ والى هذا المعنى وغيره من المعانى الميتافيزيقية التى شهدنا بعض أمثلة لها عند الحلاج فيما سبق من كلامه فى طاسين السراج ، أشار ابن الفارض فى قوله متحدثا بلسان الجمع مع الحقيقة المحمدية :

وكل الورى أبنـاء آدم غير أنى ... حزت صحو الجمع من بين اخوتى
فسمعى كليمى وقلبى منبـأ ... بأحمد رؤيا مقلة أحمدية
وروحى للأرواح روح وكل ما ... ترى حسنا فى الكون من فيض طينتى
فذر لى ما قبل الظهور عرفته ... خصوصا وبى لم تدر فى الذر رفقتى

وفى قوله :

ومن عهد عهدى قبل عصر عناصرى ... الى دار بعث قبل انذار بعثة
الى رسولا كنت منى مرسلا ... وذاتى بآياتى على استدلت

وفى قوله :

ولا فلك الا من نور باطنى ... به ملك يهدى الهدى بمشيئتى
ولا قطر الا حل من فيض ظاهرى ... به قطرة عنها السحائب سحت

وفى قوله :

فبى دارت الأفلاك فاعجب لقطبها الـ ... محيط والقطب مركز نقطتى
ولا قطب قبلى عن ثلاث خلفته ... وقطبية الأوتاد عن بدليـة

ولو أردنا أن نعقب على أقوال ابن الفارض فى هذه الابيات وفى غيرها من تائيته الكبرى بما يكشف عن معانيها الدقيقة العتيقة التى عبر فيهـــا عن رتبة الحقيقة المحمـــدية بين مراتب الوجود ، وعن ظاهر النبوة المحمـــدية وباطنها ومكانة هذه النبوة بين النبوات ، لما وجدنا تعقيبا خـــيرا مما قاله محيى الدين بن عربى فى النص السابع والعشرين من كتابه (فصـــوص الحكم) ، وهو الفص الذى جعل عنوانه « فص حكمة فردية فى كلمة محمدية » ، واليك ما قاله فى مستهل هذا الفص : « انما كانت حكمته فردية لانه أكمل موجود فى هذا النوع الانسانى ، ولهذا بدىء به الأمر وختم ، فكان نبيـــا وآدم بين الماء والطين ، ثم كان بنشـــأته العنصرية خاتم النبيين ... » . ويعنى ابن عربى هنا ما كان يعنيه ابن الفارض هناك ، وما كان يعنيه الحلاج من قبلهما ، وما يعنيه من جاء بعد ذلك من الصوفية الخلص أو الصـــوفية المتفلسفين ، وهو أن الحقيقة المحمدية التى يسميها الحلاج بالسراج ، ويسميها ابن الفارض بالقطب حينا وبغير القطب أحيانا أخرى ، ويسميها ابن عربى بالكلمة المحمدية تارة وبغير الكلمة أطوارا أخرى ، انما هى حقيقة قديمـــة بالقياس الى النبوة المحمدية وغيرها من النبوات السابقة فى صورها الظاهرة على ظاهر النبوة المحمدية ، وهذه الحقيقة بحكم قدمها هى المنبع الفيـــاض بأنواع الكماليات العلمية والعملية التى تحققت فى ســـائر الانبيـــاء من لدن آدم الى زمان محمد رسول الله عليه الصلاة والسلام ، وتحققت من بعد محمد خاتم الانبياء ، فيمن سار على نهجه واهتدى بهديه من الاولياء .

وهذا هو عبد الكريم الجيلى فى كتابه (الانسان الكامل) الذى خصـــصه لدراسة الانسان الكامل وهو لا يعنى به الا محمدا صلى الله عليه وسـلم ، قد عرض عرضا مفصلا لهذا الانسان الكامل فى صـــورته النبوية الجزئيـــة الحادثة من ناحية ، وفى حقيقته الغيبية الكلية الجامعة من ناحية أخـــرى ، وانتهى الى أن الانسان الكامل وقد كان حقيقة مندرجة فى الحقيقة المحمدية كما أن حقائق الموجودات قد فاضت عن هذه الحقيقة ، انما يعد مجمعا الهيا للوجود ، ومنبعا علويا فياضا بكل موجود ، وذلك على نحو ما نتبـــين من خلال قوله :

ليس الوجـــود بأسره ان حققـوا ... الا حبـــابا طفحتـــــه دنانه
الـكل فيـــه ومنـــه كان وعنـــده ... تفنـــى الدهـــور ولم تزل أزمانه
فالخلق تحت ســما علاه كخـردل ... والأمر يبـــرمه هنـاك لســـانه

وهكذا نتبين من خلال ما قدمنا من صفحات النبوة المحمدية ونفحاتهـا ، كيف جعل أئمة الصوفية من ظاهر النبوة المحمدية وباطنها عقودا من اللآلىء المنثورة والمنظومة ، وأناشيد تصدر عن قلوبهم الذائقة ، وتوجه الى من كان له مثل ما لهم من قلب وذوق ، فتشترك القلوب وتلتقى الأرواح فى انشـاد هذه الأناشيد الروحية الرائعة انشادا طويلا ، وفى ترتيلها ترتيلا جميلا .

محمد مصطفى حلمى